تعالى: [قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ] الأعراف:33. ويكون ممن كذبوا على الله تعالى، وقد قال: [وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ] الزمر :60.

الجذور التأريخية لنشأة هذا العلم وتطوره

أولاً : التفسير في عصر النبوة:

أنزل الله كتابه الكريم بلغة العرب وعلى أساليبهم في كلامهم، جريا على سنة الله تعالى في إرسال الرسل، وأمر نبيه أن يبلغه الناس بقوله: [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ] المائدة: 67، وحدد وظيفة نبيه ε ببيان ما أنزل إليه للناس بقوله: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ] النحل:44، وقد قام رسول الله ε بأداء أمانته كاملة، فبلغ ما أنزل عليه، وبينه للناس، يوضح أحكامه، ويوضح حلاله وحرامه، ويفسر ما أشكل عليهم من آياته، ويخصص عامه، ويقيد مطلقه، ويبين مجمله، فكان رسول الله ε هو أول المفسرين لكتاب الله، وفي عهده نشأ التفسير ، سواء بما كان يبادر إلى بيانه، أو بما يجيب به على ما يوجه إليه من سؤال.

وقد اختلف الناس في مقدار ما فسره الرسول ε من القرآن، هل فسره كله جملة وتفصيلا، بحيث لا نجد حاجة إلى من بعده مما يدخل تحت باب التفسير ، أم أنه فسر قليلا من آيه، أم أنه فسر الكثير منه لكنه لم يفسر كل شيء فيه؟.

والحق أن النبي ε لم يفسر القرآن كله بالمعنى التفصيلي للتفسير ، فلم يرو أنه فسر القرآن لفظة لفظة وآية آية، أو أنه بيّن كل أسراره العلمية ودقائقه اللغوية والبيانية، ولم يقل بذلك أحد، وهذا ما يثبته المروي في كتب السنة والتاريخ والسيرة والتفسير ، فالرسول ε لم يفسر القرآن لغويا لعدم الحاجة إليه في زمانه، ولم يرو أنهم سألوه عن معنى لفظة من القرآن لغوياً، لأنهم كانوا عارفين بمعاني ألفاظه التي يتكلمون بها ونزل بها القرآن الكريم. كما لم يفسر المتشابهات ولم يسأله الصحابة عنها، لأنهم كانوا عارفين بمقدار ما كلفوا بمعرفته منها، وما زاد فإنهم غير مكلفين بمعرفتها فليست هي مما يتعلق بها عمل، وما جاء عن ابن تيمية بقوله: «يجب أن

يعلم أن النبي ε بين لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: [لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ] النحل:44، يتناول هذا وهذا»، فهو بلا شك يعني ما يحتاج فيه إلى بيان.

وجوه البيان النبوي للقرآن:

وتفسير الرسول ε للقرآن قد جاء على وجوه، منها:

1- **تفسير القرآن بالقرآن:** مثاله قوله ε: «مفاتح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير» ففسر **(مفاتح الغيب)** في قوله تعالى: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ] الأنعام:59، بالمغيبات الخمس.

2- **كما يفسر أحياناً بعض الألفاظ المبهمة** ، مثل تفسيره **(القوة)** من قوله تعالى: [وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ] الأنفال:60، بالرمي. وتفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود، والضالين هم النصارى.

3- **وقد يفسر بعض تشبيهات القرآن وكناياته عند الحاجة**، فقد أخرج البخاري عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان ؟، قال: « **إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين. ثم قال: بل هو سواد الليل وبياض النهار**» . وهذا قليل.

4- **بيان المجمل:** فقد كان يبين ويفصل المجمل كقوله تعالى: [أَقِمِ الصَّلاةَ] الإسراء: 78، و: [أَقِيمُوا الصَّلاةَ] الأنعام:72، فلم يبين القرآن كيفيتها وأركانها وعدد ركعاتها، وفسرها رسول الله ε بفعله وقال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي** » وبين مقادير الزكاة وأحكامها بعد أن جاءت مجملة في القرآن، وبين مناسك الحج وقال: «**خذوا عني مناسككم** »، وغير ذلك مما أوردته كتب التفسير والحديث والفقه وأصوله.

5- **تقييد المطلق:** من ذلك تقييده المطلق في قوله تعالى: [وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ] النساء: 24، بعد قوله: [حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ] النساء: 23، فقيد الإطلاق السابق في حل ما لم يذكر، بتحريمه الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها.

6- **تخصيص العموم:** كتخصيصه لعموم قوله تعالى: [يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ] النساء:11 بقوله: « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة**». ومنه

تخصيص العموم في قوله تعالى: [إنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ] البقرة: 173، بقوله: « أحلت لنا ميتتان ودمان ...» ، ومنه تخصيص العموم الوارد في قوله تعالى: [وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ] الأنعام: 82، فإن بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد به العموم، فبين لهم بأنه الشرك لا كل ظلم.

7- **بيان القرآن بتأكيده** : بأن تأتي السنة موافقة لما جاء في القرآن تأكيدا للحكم وتقويته كقوله: « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» فإنه يوافق قوله تعالى: [وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ] البقرة:188.

8- **إزالة الإشكال وتقريب المعنى**، فقد أخرج مسلم من حديث أبي هريرة أنه لما نزلت هذه الآية: [لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ] النساء: 123، « شقت على المسلمين، وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلغ فشكوا ذلك إلى رسول الله ε فقال لهم :قاربوا وسددوا، فكل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها ». وفي رواية: حتى الشوكة يشاكها. وأخرجه أحمد من طريق آخر بلفظ: أن أبا بكر سأل الرسول ε بقوله: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية: [لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ] النساء:123، فكل سوء عملنا جزينا به؟ فقال رسول الله ε: «**غفر الله لك يا أبا بكر؟ ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء؟ فهو ما تجزون به** ».

فتفسير القرآن يتأثر بالمستوى الحضاري والعقلي الذي وصل إليه المسلمون، فكل عصر يلتمس فيه ما لم يحض به من سبقه تبعا لتطور الحضارة ونمو الثقافة.

ثانيا: التفسير في عصر الصحابة